عثمان بن عفان رضي الله عنه

٢٣- ٣٥هـ ٦٤٤- ٦٥٦م

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصىّ الأموى القرشى، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصى وهى بنت عمة رسول الله ﷺ، أمِّ حكيم بنت عبد المطلب. وكانت تَوْءَمةً لعبد الله والد النبى ﷺ، ولد بعد مولد الرسول صلوات الله عليه بخمس سنين وقيل بست. واشتهر بالكرم والحياء، وكان حليمًا محسنًا لين العريكة رقيق القلب حتى «إنه كان لا يوقظ نائمًا من أهل بيته، إلا أن يجده يقظان فيدعوه فينا وله وضوءه وكان يصوم الدهر»(١).

أسلم بدعوة أبى بكر رضي الله عنه، وكان من السابقين الأولين، وزوجه النبى ﷺ ابنته رقية وهاجرت معه إلى الحبشة وشهد مع الرسول عليه الصلاة والسلام غزواته غير غزوة بدر لاشتغاله بتمريض زوجته التى ماتت فى اليوم الذى انتصر فيه المسلمون فى هذه الغزوة، فعده الرسول من البدريين وأسهم له فى الغنيمة، ثم زوجه ابنته الثانية أم كلثوم ولقب بذى النورين، لزواجه بابنتى النبى ﷺ، ولما توفيت أم كلثوم فى السنة التاسعة من الهجرة قال له النبى عليه الصلاة والسلام: «لو كانت لنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان».

وكان الرسول يستعين به فى كثير من الأمور، فكان سفيره لقريش فى صلح الحديبية حينما منعته وأصحابه من أداء العمرة، ولما أشاع نبأ قتلهم إياه بايع الرسول ﷺ أصحابه بيعة الرضوان، وقد بذل الكثير من ماله فى سبيل الله: فجهز جيش العسرة إلى تبوك، إذ أمده بتسعمائة وخمسين بعيرًا وخمسين فرسا وألف دينار، كما حفر بئر رومة، واشترى بئر معونة من يهودى بعشرين ألف

(١) الإصابة لابن حجر (٤/ ١٧٨).

درهم وتصدق بها على المسلمين، ويؤثر أن النبى صلوات الله عليه قال: «لكل نبى رفيق ورفيقى فى الجنة عثمان» وكان له فى نشر الدعوة مواقف مشهودة.

روى الحديث عن النبى ﷺ وعن أبى بكر وعمر، كما روى عنه كثير من الصحابة والتابعين. وبلغ ما روى له عن النبى ﷺ -كما ذكره النووى فى تهذيبه- مائة وستة وأربعين حديثًا. وهو أحد الذين مات النبى وهو عنهم راض، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ولما مات الرسول صلوات الله عليه كان أمينا لخليفته أبى بكر رضي الله عنه.

قصة الشورى وبيعة عثمان

توفى النبى ﷺ دون أن ينص على من يخلفه فى إمامة المسلمين، كما لم يرو عنه بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة، فاختار المسلمون أبا بكر خليفة عنه ﷺ. ولما حضرته الوفاة عهد لعمر بن الخطاب بالخلافة فسمع المسلمون وارتضوا عمر خليفة. فلما طعن عمر لم يدر أى الطريقتين يتبع، وقال: فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى الرسول صلوات الله عليه) ولن يضيع الله دينه. وقد روى أنه قال عندما طلب منه أن يستخلف: «من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة ابن الجراح حيا استخلفته، فإن سألنى ربى قلت: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته فإن سألنى ربى قلت: سمعت نبيك يقول: إن سالمًا شديد الحب لله» فقال رجل أدلك عليه؟ عبد الله بن عمر، فقال له: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا فى أموركم، ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمة محمد، أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى وإن أنج كفافا لاوزر ولا أجر إنى لسعيد».

ولما أعادوا عليه طلب الاستخلاف قال لهم: عليكم بهؤلاء الرهط الذين مات رسول الله وهو عنهم راض. وقال فيهم: إنهم من أهل الجنة: على

ابن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن ابن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وأوصى أن يكون معهم عبد الله بن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء.

وقد أوصى ألا يمضى على وفاته ثلاثة أيام حتى يكونوا قد انتخبوا واحدًا منهم فلما دفن عمر اجتمع هؤلاء الخمسة الأوائل وكان طلحة غائبًا واشتوروا فيمن يلى الخلافة، فظهر فيهم التنافس واختلاف الرأى، فقال لهم عبد الرحمن بن عوف: «أيكم يخلع نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟» فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أخلع منها نفسى، فرضى القوم. وأخذ منهم ميثاقًا وأعطاهم مثله على أن يرتضوا من يختار لهم، وعلى ألا يخص ذا رحم لرحمه وألا يتبع الهوى. وأخذ يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشراف الناس. ولما كان قد خلع نفسه، وكف سعد والزبير عن التطلع للخلافة، وكان طلحة غائبًا -انحصر الأمر فى على وعثمان. واختلف الناس وظهر التنافس بين بنى هاشم وبنى أمية وانقضت الأيام الثلاثة المضروبة دون أن ينتخب الخليفة!

فلما كانت صبيحة اليوم الرابع جمع عبد الرحمن بن عوف من كان حاضرًا من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد وشاورهم فى الأمر فظهر الخصام واللجاج بين بنى هاشم وبنى أمية حتى كاد القوم يفتتنون!

فقال سعد بن أبى وقاص يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس. فدعا إليه على بن أبى طالب وقال له: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده» قال: «أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمى وطاقتى» فدعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى فقال: نعم. فوضع عبد الرحمن يده فى يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد، إنى قد جعلت كل ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان فبايعه وبايع الناس من بعده، فأحزن ذلك على بن أبى طالب وسائر بنى هاشم...[1].

(١) الطبرى (٣/ ٢٩٢- ٢٩٨) المطبعة التجارية.

وكانت بيعة عثمان يوم الإثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣هـ نوفمبر سنة ٦٤٤م.

منهجه فى الحكم:

بعد أن تمت البيعة لعثمان رضي الله عنه، خطب الناس خطبة لا تبين منهجه فى الحكم، إذ كانت كلها نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة. ويبدو أنه كان لا يريد أن يلزم نفسه بسياسة خاصة لما فطر عليه من اللين والتدين والتعلق بآثار السلف، ولكنه تدارك ذلك فى كتبه إلى عماله وقواده فى الأمصار، إذ حثهم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومعاملة أهل الذمة بالحسنى ونصح عمال الخراج بأن يأخذوا الحق وأن يقوموا على الأمانة، وألا يظلموا اليتيم ولا المعاهد.

أول قضية نظر فيها:

لما طعن عمر وعرف أن الذى قتله هو أبو لؤلؤة وتحدث عبد الرحمن ابن أبى بكر بأنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة يتناجون قبل مقتل عمر، وأنه حينما دنا منهم فقاموا فسقط بينهم خنجر أوصافه هى أوصاف الخنجر الذى طعن به عمر. ولما مات عمر اشتمل ابنه عبيد الله سيفه فقتل الهرمزان وجفينة وابنة أبى لؤلؤة فحبسه صهيب وكان قائمًا مقام الخليفة.

ولما بويع عثمان جمع المسلمين ودعا عبيد الله وقال: أشيروا علىّ فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق، فأشار علىّ بقتله، فقال بعضهم: قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم، فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المؤمنين سلطان فقال عثمان: أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى. وقد أنكر ذلك على عثمان علىّ وجماعة من المسلمين، وعابوا عليه العفو فى حدود الله، وظل علىّ متمسكا برأيه حتى ولى الخلافة فطلب عبيد الله ليقتص منه للقتلى، فهرب إلى الشام وانضم إلى معاوية.

ولا جدال فى أن عبيد الله قد افتات على حق الخليفة إذ باشر القصاص بنفسه وفى ذلك ما يؤدى إلى فساد الأمور فى الدولة، ولكن مع ذلك يجب تقدير الظروف التى أحاطت بالحادث وأثرها فى نفسية عبيد الله أو ربما كان هول المصاب جعله كالمصاب بضرب من الجنون ومهما يكن فإن الهرمزان كان مضرب المثل فى الغدر ونكث العهد مع المسلمين. فلا يستبعد منه تدبيره مقتل عمر. وأما إسلامه فلا يعلم مبلغه من الصحة إلا الله تعالى. وجفينة لم يكن أقل خبثًا من الهرمزان وابنة أبى لؤلؤة قتلت بلا ذنب! مما يدل على أن عبيد الله لم يكن من الوعى والإدراك بحيث لا يقتل مثلها، غير أننا لا ننسى أخيراً أن هذه القضية فصل فيها الخليفة على ملأ من كبار الصحابة.

الفتوح الإسلامية فى عهده

كانت الفتوح الإسلامية التى تمت فى زمن عثمان امتداداً لحركة الفتح التى ابتدأت فى زمن أبى بكر وأهم هذه الفتوح ما يأتى:

طبرستان:

فتحت طبرستان وهى بلاد واسعة على ساحل بحر الخزر (قزوين) على يد سعد بن العاصى. وكان فى الجيش الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ، وابن عباس وابن عمر والزبير بن العوام وعمرو بن العاص.

خراسان:

كانت الثورة عامة بفارس بعد مقتل عمر، لإخراج العرب منها. فأمر عثمان عبد الله بن عامر عامله على البصرة بقمع الثورة، فنهض فى سنة ٣١هـ فى جيش كبير، واشتبك مع أهل هذه البلاد واستولى على أكبر مدنها: نيسابور، ومرو، وسرخس، وأمعن فى سيره حتى بلغ مدينة بلخ وإقليم طخارستان ثم عاد إلى البصرة بعد أن أبقى جنداً من جيشه لإقرار الأمر فى كرمان وسجستان.

وفى هذه السنة قتل يزدجـرد بن شهريار آخر ملوك الدولة الساسـانية وكان فى خراسان يكاتب إمبراطور الصين وملوك الترك ويستنجد بهم على العرب، قتله غيلة فى أثناء فراره بعض أهل مـرو. وبمقتله وضع الفرس السلاح الذى ظلوا يحاربون به العرب نحوًا من عشرين سنة. لإعـادة استقلالهم واسترجاع أملاكـهم، ولكنهم استـخدموا سـلاحًا آخر أمـضى من آلات الحروب، وهو سلاح السياسة والدهاء وسنرى ما سيكون له من أثر فى دولة الإسلام!!

الثغور:

ولى عـثمـان على الكوفة الوليـد بن عـقبـة وأمده بأربعـين ألف مقـاتل للمحافظة على الثغور، فجعل منهم عشرة آلاف لغزوها مرة فى كل سنة وقد غزا أذربيجان وأرغمها على دفع الجزية التى منعتها كما سيَّر جيشًا إلى أرمينية وأعاد أهلها إلى الطاعة.

الشام وأرمينية:

كان عثمان قد جمع لمعاوية الشام كلها فغرا الروم حتى بلغ عمورية فى آسيـا الصغرى، واستـولى عـلى جـزيرتى قبـرص ورودس وسير حـبيب ابن مسلمة إلى أرمـينية سنة ٢٥هـ فأوغل فيهـا حتى بلغ تفليس وشواطئ البحر الأسود (بلاد القوقاز).

إفريقية:

ولى عثمان ﷺ عبد الله بن سعـد بن أبى سـرح مصر بدلا مـن عمـرو ابن العاص سنة ٢٧ وأذن له بعد أن اسـتشار كبار الصحابة فى غـزو إفريقية، وأرسل إليه جيشًا يضم كثيرًا من أعيان الصحابة فسار به إلى إفريقية وانقطعت أخبـار هذا الجيش عن الخليفة، فـأرسل عبد الله بن الزبيـر فى جماعة ليـأتيه بأخبار الجند، فلما وصل إفـريقية لم تعجبه الخطة التى يسير علـيها ابن سعد مع العدو، إذ وجده يقـاتل عدوه كل يوم إلى الظهيرة ثم يعـود إلى معسكره

بعد ذلك إلى اليـوم التالى، فأنكر ابن الزبيـر ذلك على ابن أبى سرح لما فى خطته هذه من إتاحة الفرصة لعدوه فى الاستعداد، فأشار عليه بتقسيم الجيش إلى فرقتين تقوم إحداهما بالقتال فى أول النهار وتباغت الأخرى العدو عندما يأوى إلى معسكره، فنزل له ابن أبى سرح عن قيادة الجيش لينفذ خطته. فلما التقى الجيشـان وانصرفا فى الظهيرة كالمعتاد انـقض ابن الزبير بالفرقة التى لم تقـاتل أول النهار على جـيش الأعداء الذين أنهكتـهم الحرب فى أول النـهار وغشيهم فى خيامهم فهزمهم هزيمة منكرة، وقتل ملكهم جرجير.

وبفـضل هذه الخطة أحـرز المسلمون هذا الـنصر العظيـم، وغنموا المغـانم الكثيرة حتى بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار.

عاد ابن الزبير إلى المديـنة بالغنائم والنصر ففرح الخليـفة بذلك وطلب إليه أن يخطب الناس فخطبـهم خطبة بليغـة أخذت بألباب المسلمـين، وذكر لهم فيها نصر الله للمسلمين.

النوبة:

اتجه أبن أبى سـرح جنوبًا وغـزا بلاد النـوبة من جـديد -وكان عـمرو ابن العاص قد غزاها من قبل -فبلغ دنقلة سنة ٣١هـ وبعد أن قاتلهم قتالاً شديدًا لم يتمكن من فتحها وهادنهم وعـقد معهم صلحًا هو أشبه بمعاهدة اقتصادية. ولما دار فيها من قتال شديد قال فيها قائلهم:

لم تـر عـــينى مـــثـل يوم دنقـلهْ والخـيل تعـدو بالـدروع مـثـقلهْ

موقعة ذات السوارى:

رأى الروم تلاحق هزائمهم أمام المسلـمين فعمدوا إلى ميـدان آخر لم يتقنه العرب وهو الحرب فى البحر رجاء أن يظفروا بالمسلمين ويستعيدوا ما استولوا عليه من أملاكـهم فأعدوا لذلك أسطولاً كبـيراً بلغت سفنه أكثر من سـتمائة سفينة بينما كانت سفن المسلمين لا تزيد على مائتى سفينة.

ويروى لنا الطبرى ما كان فى هذه الموقعة عن مالك بن أوس الذى اشترك فى قتالها فيقول:

«كنت معهم فالتقينا فى البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط وكانت الريح علينا فأرسينا ساعة وأرسوا قريبًا منا وسكنت الريح عنا فقلنا الأمن بيننا وبينكم قالوا ذلك لكم ولنا منكم ثم قلنا إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم وإن شئتم فالبحر، قال: فنخروا نخرة واحدة وقالوا: الماء، فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم فقاتلنا أشد القتال ووثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجئون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما».

وقتل يومئذ من المسلمين كثير! وقتل من الكفار مقتلة عظيمة لم ينج منهم إلا القليل. وصبر الفريقان يومئذ صبرًا لم يصبروه فى موقعة قط، لأن كلا الفريقين يعرف بأنها موقعة فاصلة لها ما بعدها.

أنزل الله نصره على عباده المسلمين وانهزم قسطنطين بعد أن أصيب بجراحات بالغة. وكانت هذه الموقعة فى سنة ٣١هـ بالقرب من الإسكندرية وعرفت بذات السوارى لكثرة سوارى السفن التى اشتركت فيها[1].

استولى المسلمون فى هذه الموقعة على كثير من السفن التى ساعدتهم على إنشاء أسطول مصرى كان له شأن يذكر فى المواقع الحربية التى دارت بين المسلمين والروم فى أيام الأمويين.

قيام البحرية الإسلامية:

لم يكن عرب الحجاز فى بادئ أمرهم -لبداوتهم- مهرة فى ركوب البحر وثقافته وممارسة أحواله.

---

(١) راجع الطبرى (٣/ ٣٣٨- ٣٤١).

وأول من ركبه منهم للفتح العلاء بن الحضرى والى البحرين فى عهد عمر ﷺ فقد أحب أن يؤثر فى الفرس أثرًا يعز الله به الإسلام فندب أهل البحرين فى سنة ١٧هـ لفتح بلاد فارس فبادروا فحملهم فى السفن بغير إذن عمر وعبر بهم الخليج الفارسى ولكنه لم يفلح فى غزوته وغرقت سفنه، فشق ذلك على عمر وعزله وتوعده وجعله تحت إمرة سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة.

ولما فشا الإسلام وخفقت أعلامه على سواحل الشام ومصر ورأى المسلمون سفن الروم وعرفوا مهارتهم فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله تاقت نفوسهم للغزو فى البحر ومجاراة الروم فى ذلك، ولحماية السواحل والبلاد التى فتحوها ودفع أخطار الروم عنها وكان أشدهم توقًا إلى ذلك معاوية والى الشام فقد كتب إلى الخليفة عمر يستأذنه فى غزو الروم بحرًا فأبى فألح عليه ورغبه فى الفتح والغنائم وقال له فيما قال: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح دجاجهم حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر فكتب إلى عمرو بن العاص أن صف لى البحر وراكبه فإن نفسى تنازعنى إليه فكتب إليه عمرو: «يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاغ العقول، يزدا فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق» فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: «لا والذى بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا» «وتالله لمسلم أحب إلىّ مما حوت الروم فإياك أن تتعرض لى وقد تقدمت إليك وقد عرفت ما لقى العلاء منى ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك».

ولما ولى عثمان ﷺ الخلافة «لم يزل به معاوية حتى عزم على ذلك بآخرة» وقال «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه» ففعل.

ولما استقر الأمر للمسلمين وشمخ سلطانهم وخضع لهم غيرهم تقرب إليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته وأنشئوا لهم السفن والشوانى فاستخدموا لها من النواتية فى حاجتهم البحرية أمما تقوم عليها وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته فاستحدثوا بصراء بها وشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشئوا السفن والشوانى[1] وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر الذى جعلوه مقراً لأساطيلهم واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس.

كان معاوية أول من غزا الروم فى البحر فقد أبحر إلى قبرص[2] سنة ٢٨هـ كما أبحر إليها أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ولقوا معاوية فكان على الناس. وصالحه أهلها على ٧٠٠٠ دينار يؤدونها إلى المسلمين فى كل سنة، وعلى أن يؤذنوا للمسلمين بمسير عدوهم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو إليهم وبذلك صارت قبرص نقطة اتصال بين أهل الشام وأساطيلهم التى أخذت تمخر فى بحر الروم[3].

وحارب عبد الله بن سعد بن أبى سرح قسطنطين بن هرقل كما قدمنا - وانتصر عليه فى موقعة ذات السوارى سنة ٣١هـ وكانت سفن المسلمين مائتى سفينة فى حين أن سفن الروم كانت أكثر من ٦٠٠ سفينة.

ومن ثم صارت الدولة الإسلامية فى عهد عثمان دولة بحرية بما استولت عليه من سفن الروم وبما استحدثه معاوية وعبد الله بن سعد من السفائن.

---

(١) جمع شونة (بفتح فسكون) المركب المعد للجهاد فى البحر. راجع القاموس وشرحه.

(٢) قبرص جزيرة ذات أهمية كبرى كانت الدول تتصارع عليها لموقعها الممتاز الذى يتيح لمن يسيطر عليها أن يسود هذا الجزء من البحر وأن يبحر منها إلى لبنان ومصر وغيرهما ولذا استهلّ العرب نشاط أسطولهم بالاستيلاء عليها.

(٣) ركبت أم حرام بنت ملحان البحر مع زوجها عبادة بن الصامت فى هذه الغزوة وكانت قد طلبت من النبى ﷺ أن يدعو الله لهما أن تكون ممن يركبون ثبج هذا البحر فقال لها النبى ﷺ. أنت فى الأولين- راجع نص هذا الحديث فى البخارى: كتاب الجهاد، ورواه مسلم فى الإمارة.

ومن ذلك الوقت أصبحت الحملات البحرية تتوالى على البلاد البيزنطية. واستعمل معاوية عبد الله بن قيس الحارثى على البحر، فرتب الغزو عليها صيفًا وشتاء وغزا خمسين غزاة بين صائفة وشاتية.

استطاع المسلمون بعد أن مرنوا على ركوب البحر والحرب فى أساطيله، أن يفتحوا جزر بحر الروم مثل: رودس التى كانت بها دار لصناعة السفن الرومية، وسردانية (سردينيا) وصقلية (سيسليا) ومالطة وإقريطش (كربد) وغيرها.

●●●

obeikandl.com

تدوين القرآن فى المصاحف

ظلت الصحف التى كتبها زيد بن ثابت بأمر أبى بكر عند حفصة بنت عمر صدرًا من خلافة عثمان. وكانت الفتوح فى ذلك الوقت قد اتسعت وتفرق المسلمون فى الأمصار، وأخذ أهل كل مصر قراءتهم عن رجل من القراء. وكانت وجوه القراءة مختلفة باختلاف الأحرف التى نزل عليها القرآن إذ كان القرآن قد نزل على سبعة أحرف كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة.

ولما كانت غزوة أرمينية وأذربيجان فى سنة ٢٥هـ اجتمع أهل الشام بأهل العراق وكان فيمن غزاها مع العراق حذيفة بن اليمان، فرأى كثرة اختلاف المسلمين فى وجوه القراءة، وسمع ما كانوا يقولونه حين يقرأ فريق منهم بقراءة لم تسمع عن غيره، فكانوا يتمارون حتى يكفر بعضهم بعضًا ولم ير منهم نكيرًا لذلك ولا إكبارًا له، ففزع إلى عثمان ﷺ فأخبره بالذى رأى! وقال: أدرك الناس قبل أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى! وكان عثمان قد أدرك بوادر الخلاف مما سمعه من أنباء القراء فى المدينة. وقراء المدينة إذا اختلفوا فغيرهم من أهل الأمصار الأخرى لابد أن يكونوا أشد اختلافا، وإن من وراء هذا الاختلاف شرًّا كبيرًا! فجمع أعلام الصحابة وذوى الرأى منهم ليستشيرهم فى علاج هذه الفتنة فأجمعوا رأيهم على أن يأخذوا الناس بقراءة واحدة من تلك الوجوه المتعددة وأن يحملوهم على حرف واحد من الأحرف التى نزل عليها القرآن وهو لغة قريش.

روى البخارى بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة ابن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود

والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق».

وكان نسخ هذه المصاحف بإشراف عثمان وأعلام الصحابة وذلك إجماع منهم على أن القراءة التى حمل عثمان عليها درءًا للاختلاف هى التى قرأ بها رسول الله ﷺ، وهى التى نزل بها القرآن وأن ما عداها من اللغات التى قرئ بها القرآن قد نزل القرآن عليها أول الأمر تيسيرًا على الناس فلما زالت هذه الضرورة واجتمع الناس على لغة قريش لم يكن ثمة داع للاستمرار على القراءة بها. ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبى داود بسند صحيح عن سويد ابن مقرن قال: «قال على لا تقولوا فى عثمان إلا خيرًا فوالله ما فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا، قال: ما تقولون فى هذه القراءة فقد بلغنى أن بعضهم يقول إن قراءتى خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرًا قلنا فما ترى؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا فنعم ما رأيت».

والفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شىء بذهاب حملته لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحد فجمعه فى صحائف مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبى ﷺ.

وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبًا لسوره واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، لأنه نزل بلغتهم.

وجمع القرآن فى مصحف واحد مأثرة من مآثر عثمان ومنقبة من مناقبه فقد سد بذلك بابًا للخلاف فى أعز ما يقدسه المسلمون وهو كتابهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

●●●

obeikandl.com

الثورة على عثمان وأسبابها[1]

كان عثمان رضي الله عنه سهلا لينًا ليس فيه حزم أبى بكر وعمر وكانت هذه الصفة لابد منها لمن يدير دولة متسعة الأرجاء، وبخاصة فى دور البساطة والزهد إلى دور الغنى والترف. وقد اغتبط المسلمون بخلافته لما كان فيه من لين ويسر بعد شدة عمر وتضييقه وتبعًا لذلك كان من المنتظر أن ينتهى عهده بسلام على هذه الصورة، ولكن الذى حدث هو التذمر من حكمه والثورة عليه تلك الثورة التى كانت نهايتها قتله ثم فتح باب الفتنة على مصراعيه بين المسلمين. وأهم هذه الأسباب التى أدت إلى هذه الثورة هى:

١- كان رضي الله عنه لينًا فى غير مواضع اللين، فكثيرًا ما كان بعض أهل الأمصار يثورون بعاملهم ويعزلونه (كما حدث فى البصرة إذ عزلوا أبا موسى الأشعرى وولوا عبد الله بن عامر) فيقرهم على ما فعلوا ويقبل ذلك منهم.

وكان ضعيف الإرادة منقادًا لابن عمه مروان بن الحكم الذى ما كان يشير عليه فى الغالب بما فيه المصلحة العامة وقد وصفه السيد أمير على بقوله: «كان عثمان شيخًا كبيرًا» - إذ تولى الخلافة وهو فى سن السبعين -ضعيف الإرادة ومن ثم لم يستطع الاضطلاع بأعباء الحكم رغم نزاهته وفضائله الكثيرة.

٢- بعض محدثات اعتدوا بها عليه.

أخذ على عثمان جمعه الناس على مصحف واحد كما سبق؛ وإتمامه الصلاة بمنى وبعرفة، وقد عاب عليه ذلك غير واحد من الصحابة وقال له على: «ما حدث أمر ولا قدم عهد. ولقد عهدت النبى ﷺ وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين وأنت صدرًا من خلافتك» فقال عثمان: رأى رأيته . . . كما أخذوا عليه أنه حمى الحمى فأجابهم بأن عمر قد فعل ذلك قبله ولم يفعل هو سوى أنه زاد فى هذا الحمى لزيارة إبل الصدقة. ولما امتنع بعض المسلمين

(١) راجع مذكرات المرحوم عبد الحميد العبادى.

من إعطائه بعض ما يملكون ليوسع به المسجد أخذه عنوة وقال: قد فعل ذلك عمر من قبلى.

وهو أول من أقطع القطائع، وأول من خفض صوته بالتكبير وأول من أمر بالأذان الأول يوم الجمعة، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة، وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم، والحق أنهم لسخطهم عليه حاولوا أن يتصيدوا له الأخطاء، فعابوا عليه الكثير بحق وبغير حق، حتى إنهم عابوا عليه ما كان فيه المصلحة لهم ولدينهم كتدوين المصاحف، وتوسيع المسجد النبوى، وغيرها من الأعمال التى قام عمر بن الخطاب بمثلها ولم يرتفع صوت واحد بالنكير عليه، ولكن لضعفه ولينه ولسخطهم عليه عابوا عليه ما هو منقبة له ومأثرة!

٣- العصبية. ولها مظهران:

أ- نظر بطون قريش بعضهم لبعض:

اختص عثمان أقرباءه بالمناصب الكبرى فى الدولة وحاباهم فى الأموال، فقد استعمل عليها سعيد بن العاص وهو أموى، وولى على البصرة عبد الله ابن عامر وهو ابن خاله، وجمع الشام كلها لمعاوية وهو أموى صميم، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن أبى سرح وهو أخوه من الرضاع، وجعل مروان بن الحكم أمين سره وكاتبه وهو ابن عمه. ولما غزا عبد الله بن سعد إفريقية غزاته الأولى نفله خمس الخمس، ولما غزاها الثانية باع الخمس الذى خص بيت المال لمروان بن الحكم بثمن بخس، فتذمر لذلك بنو هاشم وسائر بطون قريش. ومما زاد اضطغانهم أن الأمويين قد ناهضوا الإسلام فى أول أمره، وأن منهم من نزل القرآن بذمه صراحة، ومن أهدر النبى ﷺ دمه، وأنهم بوجه عام من المؤلفة قلوبهم.

ب- نظر القبائل العربية إلى قريش:

لقيت قريش بالإسلام عزاً عظيما فكانت فيها النبوة والخلافة، ودرج الخلفاء الثلاثة الأوائل على استعمال رجالات قريش على الأنصار والجند ومناصب

الدولة الكبرى، وقد حاول عمر بن الخطاب أن يكف من غلواء قريش، فكان يمنعها الخروج من الحجاز خوف الفتنة، فلما جاء عثمان أجازلها الخروج إلى الأقاليم المفتوحة كما أجاز لها امتلاك الأموال بهذه الأقاليم.

تلك المنزلة الاجتماعية الرفيعة التى بلغتها قريش فى صدر الدولة الإسلامية، قد آلمت عامة العرب الذين فتحت هذه الفتوح الكبرى بسيوفهم. وقد ظهر امتعاض عامة العرب لتلك الحال بالكوفة والبصرة وكان معظم من بهما من العرب من البادية دون الحجاز: وفى ذلك يقول بعض شعراء الكوفة:

يلينا من قريش كل عام أمير محدث أو مستشار

لنا نار نخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

فقد عبر هذا الشاعر عن امتعاضه من سيطرة قريش وهيمنتها.

٤- عبد الله بن سبأ (ابن السوداء).

رجل يهودى من صنعاء أسلم أو تظاهر بالإسلام ليكيد للمسلمين فقد عرف كيف يستغل السخط الذى كان سائدا فى المجتمع الإسلامى ويجعل بأسهم بينهم شديداً!

انتقل إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة فالشام فمصر، يريد إضلال الناس كما يقول ابن الأثير: فلما كان بالشام لقى أبا ذر الغفارى الصحابى الجليل فقال: يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول: المال مال الله! ألا إن كلا شىء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين (أى من ديوان العطاء) فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله؟ قال يرحمك الله يا أباذر! ألسنا عباد الله والمال ماله؟ فقال فلا تفعله، قال: سأقول مال المسلمين. ولقى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له مثل ذلك فقال: أظنك يهوديّا، فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به عبادة وأتى به معاوية فقال: هذا والله بعث إليك أبا ذر وكان أبو ذر يأخذ بظاهر قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ**

يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥] فكان يقوم بالشام ويقول: يا معشر الأغنياء: واسوا الفقراء بشر الذين يكثرون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وشكا الأغنياء ما يلقون منهم إلى معاوية فسيره إلى عثمان بالمدينة فنفاه عثمان إلى الربذة، فما زال بها حتى توفى! على أن ابن السوداء لم يطب له مقام بالشام لشدة ضبط معاوية هذا الإقليم فخرج إلى مصر واستقر بها وهنا يأتى للناس بنغمة أخرى غير النغمة التى جاءهم بها فى الشام فتراه يؤلف له حزبًا بها ويتخذه شيعة، وكان مما يخاطب به أهل مصر قوله: «العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمدًا يرجع» فوضع لهم الرجعة وقبلها الناس. وقوله: «إنه كان لكل نبى وصى وعلى وصى محمد؛ فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه؟! وإن عثمان أخذها بغير حق فانهضوا فى هذا الأمر وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكرتستميلوا الناس».

وروج بينهم نظرية الحق الإلهى التى أخذها عن الفرس الذين كانوا قد احتلوا اليمن قبل الإسلام واستند عليها فى أن عليا هو الخليفة بعد النبى ﷺ وأنه يستمد الحكم من الله. وقد لقيت أفكار ابن السوداء «رأس الفتنة» القبول فى مصر، وساعده على ذلك تبرم أهلها على عثمان وعامله ابن أبى سرح وانضمام كل من محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر للساخطين فنجحت سياسته فى مصر!

ولعل هذا هو السبب فى أن المصريين كانوا أنصار على بن أبى طالب فى هذه الفتنة!

خروج الثوار إلى المدينة

ابتدأت الفتنة فى الكوفة فى ولاية سعيد بن العاص، وكان أول مظاهرها سخط أهلها على عمال عثمان خاصة وقريش عامة. وكان على رأس الساخطين الأشتر النخعى وثابت بن قيس الهمذانى وآخرون ممن لهم ذكر فى الفتنة وفى أيام على كرم الله وجهه.

وكتب سعيد وأشراف أهل الكوفة إلى عثمان فى إخراجهم فكتب إليهم أن يلحقوهم بمعاوية فلما صاروا إليه جرى بينه وبينهم حوار، وأعيا معاوية أمرهم فسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان على حمص فأقاموا عنده مدة ثم أظهروا الاستقامة وعادوا إلى الكوفة فى غيبة سعيد بن العاص.

حدث مثل ذلك فى البصرة ومصر وكان فى البصرة من الناقمين حكيم ابن جبلة العبدى، وهو ممن اتصل بابن سبأ وتأثر بدعوته.

وأما مصر فقد ظهر الانحراف من عثمان فيها، فى موقعة ذات السوارى سنة ٣١هـ فبعد ما رجع ابن أبى سرح كان أول ما تكلم به محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر هو العيب على عثمان وما خالف به أبا بكر وعمر.

كثر الطعن على عثمان وعماله وبلغه ذلك، فندب أربعة من ثقاته ليتعرفوا أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار ابن ياسر إلى مصر، وقد عاد ثلاثة منهم دون أن يجدوا مبررًا لهذه الشكايات ولم يعد عمار بن ياسر فقد انضم إلى جماعة ابن سبأ.

لم يكتف الخليفة بذلك فرأى عندما وافى موسم الحج أن يدعو كبار عماله: معاوية، وعبد الله بن عامر، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن سعد ابن أبى سرح وأشرك معهم عمرو بن العاص -ليستشيرهم فى الأمر فنصحوه، غير أنه لم يغير خطته ولم ينتصح، مع أن الحكمة كانت تقتضى

بقبـول ما عرضة مـعاوية مثـلا من الذهاب معه إلى الشـام أو أن يرسل إليه جندًا من جند الشام ولو قبل لا نسدّ باب الفتنة.

دور العمل:

كان المنحرفون عن عثمان قد اجتمعت كلمتهم على الخروج إلى المدينة فى غيبة عـمالهم ولكن ذلك لم يتهيأ لهم، فأظهـروا الخروج للحج، فخرج من مصر والكوفة والبـصرة جمع بين الستمائة والألف، وكانت نيتـهم استصلاح عثـمان وإلا فعـزله، وتوافوا خـارج المدينه ودار الحديث بينهم فـيمن يخلف عثمان فـاختلفوا فكان هوى أهل البصرة فى طلحـة وهوى أهل مصر -وعلى رأسهم ابن سبأ- فى على، وعمل كل فـريق على أن يتم الأمر لمن يميل إليه ويهواه دون غيره.

نزل الثوار بظاهر المدينة وأرادوا عثمـان على أن يصلح من أمره أو يعتزل، فخطبهم خطبة أظهر فيها النزوع والتوبة، فسر الناس بذلك وهموا بالعودة إلى أمصارهم واتجهـوا إليها ولكن مروان بن الحكم افتعل كتـابًا عن لسان الخليفة وختمه بخـاتمه وبعث به إلى عامل مصر يأمره بحبـس رجال ممن خرجوا من مـصر والمثـلة بهم فظفـر الثوار بهـذا الكتـاب، فكروا راجـعـين إلى المدينة واقتحموها وتمكنوا منها. غيـر أنهم لم يمنعوا الخليفة فى أول الأمر من حرية الرواح والغدو والصلاة بالناس.

كان أهل المدينة وكبـار من بها من الصحابة فاترين فى الدفاع عـن عثمان! وإلا فكيف تمكن الثـوار مع قلة عددهم من الاسـتبـداد بالأمر والتـحكم فى المدينة ومن بها؟! وهذا الفـتور يعزى إلى أنهم هم أنفـسهم غيـر راضين عن سياسة عثمان وحاولوا نصحـه فكان يجيبهم ثم يعود إلى ما كان. أما ما آلت إليه الفتنة من حصار عثمان بداره ومنع الماء عنه ثم تسور داره واقتحامها عليه فذلك مالم يتوقعوه ولم يدر بخلدهم!

لما رأى الثوار أن عـثمان لم يعـتزل الحكم وأن موسم الحج قـد انتهى وأن النجدات التى طـلبها من ولاة الأمـصار قد دنت -اتجـهت نيتـهم إلى قتله، فحاصروه فى داره اثنين وعـشرين ليلة ومنعوا الماء عنه وأخيراً اقتـحموا عليه داره بعد قتال جرى بينهم وبين من تولى الدفـاع عنه، كالحسن والحسين ابنى على وعبـد الله بن الزبير. وأراد رجل منهم أن يضـربه بسيـفه فأكـبت عليه زوجه نائـلة وتلقت السيف عنه، فـقطع أصابعـها وضـربه الغافـقى بسيـفه وتوالت عليه ضـربات الثوار وهو مكب على كـتاب الله حتـى قتلوه فى يوم الجمـعة لثمانى عـشرة ليلة خلت من ذى الحجـة سنة ٣٥هـ الموافق ١٧ يونية سنة ٦٥٦م، وبقتل عثمان انفتح على المسلمين باب شر لم يغلق حتى اليوم.

وقد وصف نيكلسـون أثر هذه الفتنة فقـال: «لقد مزقت الحـروب الأهلية التى تلت هذه الفـتنة وحدة الإسـلام شـر ممزق ولم يندمل بعد الجـرح الذى أحدثته هذه الحروب».

●●●